

لقد كان السودان الغربي أكبر منتج ومصدر للذهب في العالم قبل اكتشاف أمريكا، وكان ذلك حافظاً رئيسياً لتردد تجار إفريقيا الشمالية على الأسواق السودانية، رغم بعدها وصعوبات ومخاطر الوصول إليها. وكان التجار السودانيون يقايضونه بالملح والنحاس بالخصوص، وينقلونه إلى مدن الساحل كولاته وتمبوكتو، من حيث يصدر إلى دول الشمال الإفريقي، وقد استعاد المغرب من تنفق هذا الذهب الذي كان يصل إلى سجلماسة، إحدى أهم المحطات الشمالية للطرق التجارية الصحراوية في القرنين 13 والرابع عشر/م (عصر بني مرين)، قبل أن يتوزع على باقي المغرب الأقصى بل والمغرب الأوسط أيضا. (تُمكن سلاطين فاس المرينيين من ضرب النقود بأسفي) والذهب إذ كانت دور السكة توجد في فاس ومراكش وسجلماسة وأزمور).

كما كانوا يقدمون الذهب كهدايا في مناسبات عيد المولد النبوي ل كبار الشخصيات وهو ما يبين وفرة الذهب في تلك الفترة (كان الذهب يتخذ كذلك في صناعة الحلبي).

وإلى جانب الذهب، كان المغرب يستورد العبيد من مالي. ويبدو أن تزايد انتشار الإسلام في هذه الأخيرة، أوقف نسبيا استرقاق السكان المحليين. إلا أن العشائر الوثنية في الجنوب ظلت تتعرض للحملة العسكرية وإلى أسر أعداد كبيرة من أفرادها. وبمقتضى العرف السائد، كان أسرى الحرب يصبحون عبيدا، لذلك كان سكان المدن في مالي يمتلكون عبيدا كثيرين، ويرون في ذلك مظهرا من مظاهر الثروة والجاه، ويعرضونهم كسلعة للبيع (الحسن الوزان، وابن بطوطة).

ويظهر أن المغرب أصبح يقل على هذه "البضاعة" أكثر منذ العصر المريني، بسبب ركود ذلك التدفق الهائل من الأسرى المسيحيين من جزيرة إيبيريا منذ هذه الفترة ويذكر ابن بطوطة أن القافلة التي رافقتها إلى توات حملت معها حوالي 600 من الخدم حملت النخبة أي العبيد النساء، فقد كانت النخبة الاجتماعية في البلاد تستخدم هؤلاء العبيد في الأشغال المنزلية وفي الصيد البري الذي كان هواية واسعة الانتشار بين

الفئات الميسورة، وعلى عكس ما ذهب إليه لوتورنو Roger le Tournou فإن العبيد السود كانوا موجودين بفاس منذ القرن 14 على الأقل (يعتقد لوتورنو أن تاريخ وجود العبيد السود في فاس يرجع إلى نهاية القرن 16 م).

وفي بداية القرن 16 م، كانوا يبيعون بنفس المدينة في سوق الخضر، وكان بعضهم يعمل في فرق للموسيقى الزنجية (كناوة)، كما كانت بعض النساء السود لانيات يعملن في الحمامات (حسب الحسن الوزان).

كما كان العبيد السود في مالي والمغرب يعطون ضمن الهدايا، وفي هذا الإطار حصل ابن بطوطة على غلام لا يتجاوز عمره خمس سنوات من أمير بلدة على النيجر، الذي أوصى ابن بطوطة بحفظ العبد الصغير حتى لا يهرب [ابن بطوطة: الرحلة ص 695].

وأرسل حاكم درعة في بداية القرن السادس 16 إلى ملك فاس هدية تضمنت من بين ما تضمنته: 50 عبدا، وخمسين أمة، وكلهم زنوج [الوزان ص 174].

وكان من عادات أعيان فاس إعطاء خادم أو أكثر ضمن "الصداق" للعمل كطبائخات ومربيات وأحيانا كجواني [الوزان / 254]، كما كان العبيد السود يستعملون في أعمال الحراسة الخاصة بالسلطين.

وختاما نشير إلى أن العلاقات المغربية- الإفريقية لا تنحصر في تجارة الذهب والرقيق كما توحى بذلك الكتب المتداولة- فهي كذلك وربما بالدرجة الأولى إنسانية وثقافية على حد تعبير الأستاذ عبد الله العروي [علاقات المغرب بإفريقيا، ملاحظات أولية، 1998].

IV - العلاقات الروحية:

إذا كانت العوامل الاقتصادية والسياسية قد لعبت دورا حاسما في تمتين الروابط بين المغرب وبلاد السودان خلال العصر الوسيط، وما رافق ذلك من تبليغ رسالة الإسلام إلى شعوب المنطقة، فإن العوامل الروحية وخاصة التصوف كان له الأثر الأكبر والحظ الأوفر في ترسيخ قواعد الإسلام وتجديده والوقوف ضد خصومه في إفريقيا جنوب الصحراء خلال التاريخ الحديث والمعاصر.

إن القارة الإفريقية تعج اليوم بعدد كبير من الزوايا والطرق الصوفية، إلا أننا سنركز هنا على الطريقة التجانية التي كان لها أكبر الأثر في مد الإشعاع الثقافي الروحي المغربي إلى ما وراء الصحراء، ومহারبة الوثنية في بلدان حوضي السينغال والنيجر، ولعبت دورا رائدا في تمتين الروابط بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فمن هو مؤسس الزاوية التجانية؟

أ - التعريف بالشيخ سيدي أحمد التجاني:

ولد أبو العباس سيدي أحمد التجاني [أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد بن سليم التجاني] حوالي سنة 1150 هـ/1737 م، بواحة عين ماضي بجنوب لغواط بالجزائر، وفي سنة 1171/1757 هـ) حل بفاس وأقام بها قصد استكمال دراسته التي قطع فيها أشواطاً مهمة بعين ماضي.

وقد كان حضوره بفاس فرصة مواتية بالنسبة له من أجل التعرف على مختلف الطرق الصوفية وأخذ العلم على يد فقهاء وعلماء القرويين، وفي سنة 1176م/1762 هـ، توجه إلى مدينة تلمسان التي مكث بها مدة طويلة تعاطي خلالها لتدريس القرآن والحديث، وحظي بعطف الباي محمد بن عثمان، باعتبار أن سيدي أحمد التجاني لازال مجرد فقيه، ولم ينصب نفسه بعد شيخاً صوفياً.

وفي سنة 1773 [1187 هـ]، شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج

مرورا بتونس والقاهرة اللتين تعرف فيهما بشكل أعمق على الطريقة الخلوتية التي اعتبرت التجانية فرعا منها.

وعاد بعد ذلك، واستقر بقرية أبي سمغون "بالصحراء الجزائرية قادمة إليها من تلمسان، وبهذه البلدة سيقترح لنشر مذهب زاوية جديدة، انطلاقا من سنة [1782م/ 1196 هـ] (يذكر سيدي علي حرازم برادة في جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض أبي العباس التجاني، أنه وقع له الفتح وأن له في تلقين الخلق... ووقع له الإذن منه يقظة لا مناما... عين له الورد الذي يلقنه في سنة 1782/ 1196 هـ، ص 43).

غير أن النشاط المكثف الذي بذله سيدي أحمد التجاني "بأبي سمغون" سواء من أجل بناء زاوية جديدة أو من أجل تقوية صفوف أنصاره سيؤلب عليه سخط حكام الجزائر الذين سيعملون على فرض حصار على المنطقة. وسيزداد ضغط خنق السلطات العثمانية له عندما سيقرر سيدي أحمد التجاني الاستقرار بتلمسان التي كان سكانها يكونون حقا دفيناً للأتراك، مما دفع بالباي إلى الإقدام على نفيه من جديد إلى الجنوب الصحراوي [إلى أبي سمغون]. وعندما أصبح له أنصار هناك أيضا أرسل الباي الجديد (عثمان بن محمد) أوامره إلى سكان هذه القرية يحثهم على طرده من منطقتهم، وعلى إثر هذه الضغوط القوية اضطر الشيخ سيدي أحمد إلى أن يختار منفاه بفاس منذ سنة 1796 م.

ب - قيام الزاوية التجانية بفاس:

بمجرد وصوله إلى فاس بعث برسالة إلى السلطان مولاي سليمان [1792- 1822م] يشرح له فيها سبب نفيه، وهذا النفي الذي كان في الأساس يكتسي طابعا دينيا، سيكتسي بسرعة صبغة سياسية باعتبار وقوعه في الوقت نفسه الذي كان يتم فيه استكمال استرجاع مدينة وجدة ونواحيها، ولنفس السبب فإن سيدي أحمد التجاني سيستقبل بحفاوة كبيرة بفاس من قبل الرعية والسلطان على حد سواء.

وفي هذا الصدد يقول أحمد بن خالد الناصري في كتابه "الاستقصا" [ج 8/105]
"ولما اجتمع به ورأى سمته ومشاركته في العلوم أقبل عليه واعتقده وأعطاه دارا
معتبرة من دوره، كما انفق في عمارتها نحوًا من عشرين ألف منقال ورتب له ما
يكفيه، وأقبل عليه الخلق واشتهر أمره بفاس والمغرب وهو شيخ الطائفة التجانية رحمه
الله، ونفعنا به".

هذه الاتفاقية وما رافقها من انضمام السلطان لهذه الطريقة، ستزداد خطورتها
عندما نعلم أنه على عكس قواعد أغلب الزوايا، يلزم مع الانخراط في التجانية التخلي
عن كل ارتباط بالزوايا الأخرى، مما كان سببا في وقوف معظمها ضد التجانية.
ومن جهة أخرى فقد سار عدد من الأعيان ورجال الدولة على أثر ملكهم في
انتمائهم الصوفي التجاني والدفاع عنها. وسيتقوى التقارب بين التجانية والسلطان عندما
سيبتنى هذا الأخير الأفكار الوهابية التي تحرم تقديس الأضرحة وزيارتها وإقامة
المواسم مما أثار سخطا عاما لدى الزوايا الأخرى. (وتسبب في تخلي المولى سليمان
عن الحكم) وبصفة عامة فقد كان أعداء التجانية من الكثرة، غير أن إجماع الزوايا في
معارضها لنشاط سيدي أحمد التجاني، جعله ينصح أولاده بمغادرة المغرب بعد وفاته
والعودة إلى أبي سمعون وعين ماضي التي استقر بها أبناؤه بعد وفاته سنة [1815 م
1230 هـ].

ويمكننا أن نتساءل: هل الوصاية المخزنية على الزاوية للتجانية بالمغرب،
ومضايقتها من قبل الزوايا الأخرى، وهجرة أبناء سيدي أحمد التجاني إلى جنوب
الأطلس الصحراوي هي التي تفسر امتداد تعاليم الزاوية التجانية وانتشارها في
الصحراء والسودان الغربي؟ أم أن الروابط والصلات التاريخية بين صفتي الصحراء
هي التي حثمت انتقال الأفكار والمذاهب بين مدينة فاس ومراكز الحضارة في السودان
الغربي بصفة خاصة، وبين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء بصفة عامة. وأيا كان
الجواب، فإن الشيء المؤكد هو أن إشعاع الزاوية التجانية انطلق من مدينة فاس،

مخترقا الصحراء وبلاد السودان خلال القرن 19، ليدعم الروابط والصلات بين المغرب وشعوب تلك المناطق.

ج - امتداد تعاليم الزاوية التجانية إلى الصحراء
كيف امتدت تعاليم التجانية إلى الجنوب المغربي؟
تعتبر عناصر قبيلة "إداو علي" الشنقيطية، صلة الوصل الرئيسية بين فرعي التجانية بالمغرب والصحراء وما وراء الصحراء، لأنهم أول من انخرط في هذه الطريقة بالصحراء المغربية وثانيا لكونهم ارتكروا عليها لاحتلال الصدارة والوجهة بين سكان المنطقة.

كان علماء هذه القبيلة يزورون فاس والتوجه إلى المغرب بشكل مستمر من أجل استكمال حياتهم وملاقة نظرائهم المغاربة، فكانوا يمكثون مدة طويلة بالشمال المغربي. ولقد كان شيخ هذه القبيلة محمد الحافظ العلوي (ت 1830) على ما يبدو أول من انخرط من رعايا "إداو علي" في الطريقة التجانية وأخذ وريدها، بعد رحلة طويلة قادته إلى مكة وهناك شرع "يبحث عن شيخ كبير يتبع طريقته، وبعد أن علم بخبر سيدي أحمد التجاني قرر الانضمام إلى مجموعة من الحجاج العائدين إلى فاس لزيارة هذا الشيخ، فتحققت له ذلك، ومكث عنده بفاس مدة من الزمن أخذ أثناءها ورد الطريقة، وعندما كان بصدد مغادرة فاس، منحه شيخه لقب الخليفة على بلاد السودان، وأنن له بإعطاء الأوراد لمن يرغب في ذلك.

وبعد عودته إلا بلاده، شرع الشيخ الحافظ في نشر أفكار الزاوية التجانية وقد نجح في ذلك إلى حد كبير باعتبار ما ترتب عن ذلك من وصول إشعاع التجانية إلى بلدان حوضي السينغال والنيجر (جنوبا).

وبعد وفاة محمد الحافظ سنة 1830 استثمر مجموعة من العناصر من قبيلة أداو علي "في التواصل مع الزاوية التجانية بفاس ونقل تعليمها نحو الجنوب فقد كان أفراد

هذه القبيلة يقومون بأداء فريضة الحج، وأثناء الرحلة يحرصون على زيارة ضريح الشيخ سيدي أحمد التجاني بفاس، واستغلال الفرصة قصد الالتقاء بكبار شيوخ الزاوية. ولعل الروابط المتينة التي تعززت بين قبيلة "أيداو علي" من جهة ومدينة فاس من جهة ثانية بفضل الطريقة التجانية هي التي ستؤهلهم للعب دور رائد في نشر تعاليم التجانية وتوسيع نفوذها بالسودان الغربي.

د - التجانية بالسودان الغربي:

انتقلت تعاليم الزاوية التجانية إلى إفريقيا جنوب الصحراء بفضل المجهود الجبار الذي بذله الحاج عمر الفوتي لخدمة هذه الزاوية في المنطقة. فمن هو الحاج عمر الفوتي؟

ولد الحاج عمر الفوتي في أواخر القرن 18 [1794-1864] بقرية Podor على الضفة اليسرى لنهر السينغال في وسط أسرة أرستقراطية، وهي الأسرة التي لفتته تكويننا إسلاميا، على أن الرحلة الحجية للشيخ عمر، وفرت له بالحجاز فرصة لقاء ومصاحبة أحد أركان الطريقة التجانية، وهو المغربي محمد الغالي بوطالب التجاني (توفي بالحجاز 1829 م) حيث صاحبه مدة من الزمن وأصبح من مريديه المخلصين، مما جعل محمد الغالي بوطالب ينصبه ويعينه خليفة للطريقة التجانية ببلاد السودان، وعند عودة الحاج عمر الفوتي إلى بلده، واستقراره، أخذ يعطي الورد التجاني لأصحابه، وينصب المتقدمين عليهم، فشاخ أمره في منتصف 19 م، ثم طمح لتأسيس دولة إسلامية تجانية عرفت نجاحا كبيرا بالسودان الغربي، لكنها اصطدمت بمناورات الاستعمار الفرنسي، ومناورات الأمراء والزعماء المحليين المنافسين، فانهارت دولته على إثر دخول القوات الفرنسية إلى سيكو عام 1892.

إن توسع نفوذ التجانية ببلاد السودان بفضل الحاج عمر الفوتي، أتى ليتم العمل الذي بذاته قبيلة "أيداو علي" في المناطق الواقعة جنوب نهر السينغال.

لقد شكلت بعض عناصر قبيلة أيد وعلي خزاناً ثميناً لأطر دولة الحاج عمر الفوتي الفتيّة (عين مجموعة من الشخصيات من هذه القبيلة كمستشارين له وكقواد حرب.

وقد تمكن الحاج عمر من تحقيق عدة انتصارات ضد الوثنية والمسيحية في السودان الغربي (القضاء على دولة ماسينا وسيكو) وأسّس امبراطورية تمتد من نهر النيجر شرقاً.

وقد حرص الحاج عمر على تمثين روابط دولته بالمغرب بفضل زاوية فاس التجانية، وتفيدُ بعض المصادر أن الحاج عمر قد يكون طلب كرئيس دولة مساعدة المغرب في الميدانين الاقتصادي والثقفي، مادام المغرب هو الأقرب إليه اقتصادياً ومذهبياً وثاربخياً. وحتى بعد وفاة الحاج عمر (1864 م) استمر خلفاؤه من بعده يلتجئون للمغرب لطلب المساعدة كما تفصح عن ذلك رسالة أحمد بن الشيخ عمر إلى السلطان مولاي الحسن عام 1301 هـ/1884 م والتي يطلب من خلالها مساعدته ضد النصارى الذين يعملون على تفتيت الإمبراطورية الإسلامية التي بناها والده.

وللتجانية فروع عديدة بالسينغال وفي غيرها من دول إفريقيا الغربية خاصة في غانا وشمال نيجيريا ومالي، وللتجانية مريدّين في أقطار إفريقية أخرى مثل مصر وجمهورية السودان.

V - العلاقات السياسية

ظلت بلاد السودان (إفريقيا الغربية) خلال القرون الإسلامية الأولى بمنأى عن أي عملية عسكرية، مما حرم المنطقة من التعريب، على أن الإسلام واللغة العربية سيصلان للمنطقة عبر قنوات أخرى، تمثلت أساساً في نشاط التجار والداعاة المسلمين الذين كانوا يقصدون بلاد السودان انطلاقاً من مراكز الضفة الشمالية للصحراء. كما تمثلت أساساً في نشاط الجالية المغاربية التي استقرت بالمنطقة بدعوة من الملوك السودانيين الـلوتينين.

+ ففي عهد المرابطين تذكر المصادر التاريخية المغربية أن المرابطين كونوا في القرن 11 م حركة دينية عرفت بالحركة المرابطية وحقت نجاحاً دينياً وسياسياً وكانت لها علاقات وثيقة بالسودان سمحت بتدفق التأثيرات الدينية الإسلامية جنوباً، ونتيجة لذلك انتشر المذهب المالكي ببلاد السودان انطلاقاً من المغرب. والملاحظ أن زعماء هذه الحركة لم يعتمدوا ركن الجهاد سبيلاً في نشر الإسلام بتلك البلدان وإنما اقتصر عملهم على الدعوة بالكلمة الطيبة، الأمر الذي ترك آثاراً عميقة في نفوس السودانيين، وعزز مكانة الإسلام والمسلمين بينهم. وفي إطار هذه العلاقات السلمية، رحبت مملكة غانا بالمسلمين المقيمين بها، وأكثر من ذلك، كان ملك غانا يستعين بهم في تدبير شؤون الحكم، ويقلدهم المناصب العليا في بلده.

ونفس الظاهرة نجدها في دول وممالك إفريقيا جنوب الصحراء، فقد كان ملوك أيو Oyo (بنيجريا الغربية) خلال القرن 14 م يستعينون بخبرات المسلمين في تدبير شؤون الحكم، وكذلك الإمبراطور "تيودور" عاقل الحبشة الذي كان يوظف في قصره كتاباً من العرب المسلمين بغاية كتابة المراسلات إلى المناطق العربية.

- وفي عهد الموحدين: استمرت العلاقات المغربية السودانية، تشهد على ذلك الرسالة التي أرسلها ولي سجماسة (في مطلع القرن 13 م) لملك غانا بشأن تيسير ظروف التجارة ما بين البلدين. ولعل في هذه العلاقات الطيبة التي جمعت المغرب ببلاد السودان وقتئذ، ما حفز البلاط الموحدي على استقطاب أحد أبناء مملكة كانم (الواقعة على الحافة الشمالية لبحيرة التشاد) الأدبي أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي (الناصرى، ج 5، ص 103).

- وفي عهد المرينين: لاحظ ابن خلدون أن العلاقات المغربية السودانية تطورت بشكل لم يسبق له مثيل، حيث سارت بين السلاطين من ملوك بني مرين وملوك امبراطورية مالي العديد من السفارات، ويظهر أن السلطان أبا الحسن المريني (1330-1349) بجانب عاهل امبراطورية مالي منسي موسى (1312-1337) كان لهما دور كبير في تعزيز أسس هذه العلاقة، واستمر خلفهما في نفس السياسة على حد تعبير ابن خلدون الذي كان شاهدا ومتبعا للكثير من أحوال العلاقات المرينية- المالية، والسفارات المتبادلة بين البلدين.

يقول ابن خلدون: "كان بين السلطان منسي موسى وبين ملك المغرب لعده من بين مرين السلطان أبي الحسن مواصلة ومهاداة سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين..." (ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 416).

ولعل خير ما يترجم المستوى الرفيع الذي بلغته العلاقات المرينية- المالية إنما يكمن في الحفل الديني الذي أقامه السلطان منسي سليمان (1341-1361)، بعاصمة ملكه بمناسبة التعزية في فقدان السلطان أبي الحسن المريني، وتزامن هذا الحفل مع وجود ابن بطوطة بالعاصمة نياي، فدعاه السلطان المالي لحضور وقائع التعزية، فتأثر الرحالة ابن بطوطة غاية التأثر بهذه المبادرة التي ظلت عاقلة بذهنه، فسجلها ضمن ما سجله عن مملكة مالي المسلمة.

- وفي عهد السعديين: استمرت العلاقات المغربية السودانية على نفس الوثيرة خلال القرن 16 م، وتوطدت مع العديد من الممالك والإمارات الواقعة على الضفة الجنوبية للصحراء، منها مملكة كانم- برنو (بنيجريا)، ومملكة "كبي" الواقعة شمال شرق بلاد هوس (شمال نيجريا)، ومملكة سنغاي.

فقد تطورت علاقات أحمد المنصور مع مملكة كانم- برنو (Kanem bornau) بشكل متسارع، خاصة بعدها رفض الباب العالي العثماني، طلب عاهل كانم بورنو ماي إدريس تزويده بالسلاح بغية الجهاد في المناطق الوثنية ببلاد والسودان وعلى إثر ذلك توجهت سفارة لمر اكش لتحقيق نفس الغرض، فاستقبل أحمد المنصور سفير "ماي إدريس" وأخبره أن ركن الجهاد لا يصح شرعا دون رعاية من إمرة المؤمنين، لذلك طلب منه البيعة باعتباره أمير المؤمنين.

وبعد تبادل سفارات عديدة بين الطرفين، أرسل "ماي إدريس" وثيقة البيعة لأحمد المنصور.

إلا أن المؤرخين ركزوا على العلاقات الدبلوماسية التي نسجها السعديون مع مملكة سنغاي (وهي مملكة تواجدت بغرب أفريقيا منذ القرن 15 م، وحتى أوقات متأخرة من القرن 16م، وهي واحدة من أكبر الأمبراطوريات في التاريخ الإفريقي، عاصمتها مدينة غاو GAO بمالي الحالية، حيث كانت دولة سنغاي الصغيرة موجودة منذ القرن 11م. وقد قام السلطان أحمد المنصور السعدي (ت 1603) بتجهيز حملة عسكرية على هذه المملكة انتهت بالسيطرة عليها سنة 1591 م. فما هي دوافع هذه الحملة؟

إن المؤرخين والباحثين اختلفوا في البواعث والدوافع التي حفزت المنصور على القيام بعملية غزو/ فتح السودان. فرأى البعض أن الباحث كان اقتصاديا محضا، ورأى البعض الآخر الدافع إلى ذلك كان هو صرف طاقة الجيش في هذه الناحية البعيدة للتخلص من ضغوطه وتطلعاته، خاصة وأن صرف هذه الطاقة للتوسع في الشرق أو

الشمال يكاد أن يكون من قبيل المستحيل، وذلك لوجود دولتين قويتين هما: الإمبراطورية العثمانية في الشرق، والإمبراطورية الإسبانية في الشمال (شبه جزيرة إيبيريا). ومعنى ذلك أنه لم يبق مجال للمنصور في تصريف هذه الطاقة الحربية إلا نحو الجنوب ونحو بلاد السودان، وهذا بالإضافة إلى أن ذهب السودان ورفيقه الأسود كان يشغلان بال محبي الثراء والغني من ملوك وأباطرة ذلك العهد.

لذلك بدأت العلاقات المغربية السودانية تتغير نتيجة لعدة تحولات أهمها الرغبة في الوصول إلى مصادر الذهب، ولذلك تبلورت فكرة ضرورة تبعية السودان لسلطة المغرب. ومن الباحثين من يرى أن فكرة فتح السودان كان الباعث عليها هو محاولة استرجاع الأندلس، ذلك الفردوس المفقود الذي لم يكن من السهل على المغاربة أن ينسوا أمجادهم فيه.

وفي عهد أحمد المنصور بالذات تجمع عدد من الأندلسيين الناقمين بالمغرب، وكون من هؤلاء جيشا هاما كان يسمى "جيش الأندلسيين" وكان من بين أفراده قادة ورؤساء معروفين بقوتهم وشجاعتهم. وكانوا متحمسين إلى الحرب ومواجهة المسيحيين لاسترجاع الأندلس (لكن المنصور المسؤول الأول في الدولة لا يريد أن يغامر بحرب يكون مآلها الفشل الذريع، ولذلك لم يجد بدا من أن يمهّد للحرب مع الإنسان بفتح السودان وتوحيد وجمع كلمته بكلمة المسلمين في غرب إفريقيا.

ومعنى ذلك أن عملية فتح السودان في نظر أحمد المنصور فيها كسب جديد من الناحية المادية والبشرية والتي يمكن استغلالها في التوجه لاحقا نحو الشمال (أي الأندلس) لكن يبدو أن أسباب تأني المنصور في الهجوم على الإنسان كانت متعددة: سياسية واجتماعية وطبيعية.. وكان أهمها في المرحلة الأخيرة من حياته تلك الأسباب الطبيعية التي جعلت المغرب يئن تحت وطأة الأوبئة والجفاف، وما يتبعها من ظروف اقتصادية صعبة، وقد عرف المغرب في الفترة الأخيرة من حياة المنصور وباء مهلكا، وغلاء فاحشا، تردد صداهما في مختلف كتب التاريخ وكتب التراجم.

لقد انتهت الحملة بإخضاع بلاد السودان سنة 1590 م، وتنظيمه إداريا وتأمين الطرق بسط النفوذ على الواحات والمحطات التجارية. وتمكن المنصور من الوصول بجيشه إلى حوض النيجر، وعمل على جعل هذا الامتداد حقيقة ملموسة وذلك بتعيين باشوات على الأقاليم التي أصبحت ضمن الأقاليم المغربية التابعة للسلطة السعدية وكان هؤلاء الباشوات من أفراد قواد الجيش السعدي. وفي سنة 1612 سيتوقف تعيين هؤلاء الباشوات من طرف السلطان السعدي نظرا للظروف التي أصبحت تمر منها البلاد بعد وفاة أحمد المنصور (1603م) منذ هذا التاريخ دخلت العلاقات السياسية في مرحلة جديدة من أهم مميزاتها استمرار إعلان الباشوات ببعثهم للسلطة المغربية، إذ كانوا يقومون الخطبة باسم سلاطين المغرب وينعتونهم "بأمير المومنين" في مراسلاتهم. ثم نقل هذا الولاية بمبايعة العلويين منذ 1670 م. فكيف كانت علاقة العلويين بالسودان الغربي؟.

- في عهد العلويين:

بدأت الاتصالات بصورة رسمية بين السلطة العلوية وإقليم السودان الغربي بإرسال السلطان المولى الرشيد بعثة إلى تمبكتو تأخذ البيعة سنة 1670 م، وكان السلطان قد أتم توحيد المغرب، هذه البيعة لن تتجد إلا في سنة 1687 بعد أن استقرت سلطة العلويين في الواحات الجنوبية التي منها سيحمل ممثل السلطان رسالة إلى باشا تمبكتو تؤكد على ضرورة اعتبار الإقليم من الأقاليم المغربية وكانت الجيوش المغربية قد وصلت إلى أقاليم موريطانيا منذ 1672، وقامت بغارات في كل منطقة الساحل السينغالي أفلقت طوال عشرين سنة الوجود الفرنسي هناك من 1727 إلى 1757، وهي فترة الأزمة السلطوية بالمغرب بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل استمرت الخطبة بالسودان تقام باسم الملوك العلويين، وقد ظل هؤلاء إلى نهاية القرن 18 يعتبرون السودان ولاية مغربية تابعة لسلطانهم، هكذا كان السلطان محمد بن عبد الله

مثلا يكتب في مراسلاته إلى الأوربيين "سلطان مراکش وفاس والسوس الأقصى وكاو وغبيا..."

وقد توصل السلاطين برسائل من طرف سكان السودان أو من غيرهم تثبت ذلك لنعتهم "بسلطان الغرب وفاس ومراكش والولايات التابعة - تمبوكتو - تاودني - والسوس الأدنى والسوس الأقصى وتوات".

لقد أعطى العلويون أهمية بالغة للعلاقات مع إفريقيا جنوب الصحراء، فرغم أنهم لم يرسلوا حملات عسكرية منظمة، ولم يفرضوا رقابة على التسيير الإداري، ولكن الثابت والواضح أن السلطة العلوية حرصت على بقاء نفوذها في المناطق الجنوبية، وفي الصحراء المغربية، في أقاليم شنتيقت (موريطانيا) وفي الساحل السنغالي، وفي كل السودان الغربي. إذن استمرت السلطة العلوية ترى في السودان امتدادا طبيعيا لنفوذها، ولكن لم يعد بإمكانها أن تبلور هذا الامتداد بالشكل الذي كان عليه على عهد أحمد المنصور السعدي. فما هو المتغير؟ هل طبيعة السلطة وتوجهاتها؟ أم الظروف الداخلية والضغط الأجنبية؟

لقد أصبح المد الأوربي والتفوق الأوربي حقيقة واقعة تتجلى يوما بعد يوم، وأصبح الصراع من أجل البقاء هو وحده الهدف المركزي لدى الحاكمين. كما أن الصراعات الداخلية على السلطة منذ وفاة أحمد المنصور أضعفت السلطة المركزية [نموذج السلطان مولاي إسماعيل الذي أمضى ربع قرن تقريبا في محاولة ضبط الاستقرار داخل البلاد].

لكن هذين العاملين وحدهما قد لا يفسران بصورة واضحة لماذا لم تهتم السلطة العلوية بخلق ارتباط مباشر مع السودان الغربي، لذلك لا يجب إبعاد احتمال أن العلويين لم يروا ضرورة في توجيه جيوش أو تعيين قيادات جديدة مادامت تبعية السودان حقيقة واقعة تؤكد ما يتلقاه السلاطين من بيعات، كما يؤكد استمرار قيام

الخطبة باسمهم، ولذلك اقتصر تتركاتهم في الحفاظ على هذه الاستمرارية ومحاولة منع كل ما يمكن أن يؤثر عليها.

فقد جاء في إحدى رسائل السلطان مولاي إسماعيل إلى حاكم تمبوكتو (أو آخر 1689 م) مما يؤكد تصوره للعلاقات بينه كسلطة وبين السودان الغربي كإقليم مرتبط بهذه السلطة.

فيعد أن أشار السلطان إلى أنه تلقى البيعة "الموقعة من طرف العلماء والأعيان... وحسبما يقتضيه الشرع..." فإنه يؤكد بأن تمبوكتو تمثل "... في نظرنا مدينة من مدن المغرب..." ويعتبر "... بلدكم من أحسن أقاليمنا، فحن معجبون بسيرتكم، وتعلقكم بالقواعد المخزنية..." ثم يقر الحكام في مأمورييتهم، فالسلطان يرى أن حكام تمبوكتو يضبطون الأمور ولهم المقدرة في التسيير الإداري، وهم أعرف بمنطقتهم، فهم يعيشون بها وقد نشأوا هناك.

إن مع التأكيد على التبعية والارتباط هناك نوع من الاستقلال الذاتي.
من خلال هذه الرسالة يتضح أن السودان إقليم مغربي في مفهوم السلطة العلوية تستمر فيه السيادة على يد قواد محليين.

ولعل استغاثة فقهاء وعلماء تمبوكتو عام 1893 م بالسلطان العلوي مولاي الحسن لرد رصد الغزو الاستعماري الفرنسي للمنطقة دليل على ذلك.